قصة قصيرة

لا عشاء بعد الليلة

عبدالستار ناصر

في الطريق، ما بين البصرة وبغداد، وقف القطار بي...
لم اكن وحدي، لكن الجسد الذي كان معي، مات.. أعني جسد المرأة التي قالت البارحة:

ــ تعال نسافر ليلة واحدة الى مكان بعيد.

نزلت في البصرة، كان في حقيبة المرأة من الدنانير ما يكفي اسبوعين في.. شيراتون.. قبل ان تأخذني الشرطة الى منفاي الذي سأموت فيه.. لهذا قرّرت أن أعيش أحسن أيام عمري قبل أن أخسر نفسي وراء القضبان!

هل تراني أحلم؟

مطلقا.. هذه هويتها معي، اشعلت النار فيها، ودخنت آخر سيجارة عثرت عليها.. رأيت النار تسري في الحروف الخمسة التي صنعت اسمها الأول.

قلت في ذات نفسي:

ــ وداعا يا سامرة، من يدري ان لا ذنب لي في موتك الغريب هذا؟ حتما سيعرفون، اليوم او غدا، بأننا كنا معا في مقصورة واحدة...

* * *

كنا خمسة في غرفة واحدة، أنا وسامرة، وموظف عتيق اسمه فاضل، وأيضا كانت معنا «مارلين» اسرع كاتبة طابعة في الوزارة.. أما الخامس فقد فرض نفسه علينا طوال سنوات الوظيفة دون أن ينطق بكلمة واحدة..

منذ أول صباح جاءت فيه «سامرة» الى مكان عملي كنت اعرف ان اشياء غريبة ستجري في حياتي.. دخلت الغرفة وقالت:

ــ من هو السيّد عامر حسون؟

نظرتُ اليها، وفهمتُ انها الموظفة التي نقلوها من قسم البحوث الى ارشيف وادارة الوزارة، عقابا على غيابها ثلاثة ايام دون عذر مشروع!

كانت اكبر مني بعامين فقط، ابليس عجيب يختفي في بؤبؤ عينيها. ما إن جلست حتى رأيتُ نفسي ــ رغم ارادتي ــ احدق في جسدها البض وثيابها التي نطقت بشهوة طاغية لم اكن وحدي الذي احسّ بها..

كان حضورها أول انقلاب كبير في برود حياتي، لكنه ــ في الوقت نفسه ــ أول خطوة الى النار التي اشعلتها في رجولتي.

لا أعرف ماذا يقال عن امرأة يرتعش بين يديها أقوى الرجال، ترى أي أحمق نقلها الى غرفتي وكيف تمكن ان يبتعد عن هذا الوجه العنيد الغريب الملتهب شهوة وعشقاً بلا حدود؟!

قال فاضل، وأسنانه المريضة تسبقه الى انوثتها:

ــ تفضلي، هذا هو السيد عامر حسون.

لا أدري من رفعني من مكاني، وكيف بقيت واقفا مثل تمثال، وأنا احاول أن احتفظ برجولتي امام هذا الشيطان الذي يلبس ثوب امرأة!

رأيتها — أول ما رأيت — تبسم، ليتها لم تفعل، فقد سقط — مني — على ارض الغرفة ما لم ارفعه حتى الان.. هذا الشيء الذي لا اسم له، شعرت به ينفصل عني ويهوي تحت حذائي، اصابني خدر يشبه الخدر الذي دغدغني في أول مرة أخذوني فيها الى عاهرة..

اقتربت مني، يدها اليمنى، حقيبتها السوداء، اقترب اللهيب الذي اخجلني امام بقية الموظفين.. مددتُ اليها يدي، اعرف ان اللحظة التي أمسكت فيها اصابعها، هي اللحظة التي بدأت فيها حياتي!

جاء (الفراش) وشربنا الشاي، قالت مارلين، وقد اكتشفت بعض ما جرى:

— نحن هنا — مع السيد عامر حسون — مثل عائلة صغيرة آمنة، وان شاء الله ستكونين واحدة منا، صدقيني، هذا أحسن أقسام الوزارة..

قالت سامرة، وهي ما زالت تنقل ابتسامتها من وجهي الى وجه مارلين الى وجه فاضل:

— أرجو ان تكون هذه العقوبة أفضل هدية وصلتني.. أشعر بالفرح معكم رغم انني لا اعرف أي واحد منكم..

كنت اريد أن أنطق بشيء. أنا كبير هذا القسم ورئيس ملاحظيه، ماذا دهاني؟ مشلول في لساني واعصابي وافكاري، حتى الشاي — الذي شربه الجميع — لم أستطع مد اصابعي اليه.. نظرتُ الى السماء من فتحة النافذة وقلت في ذات نفسي:

— تكلم بسرعة ايها الغبي، قل أي شيء!

وبعد وقت لا أعرف كيف امتد من شمال الدنيا الى جنوب الوزارة، نطقت بكلمة واحدة جاءت مبتورة ومضحكة ليس فيها اي معنى:

— أهلًا..

هل تكفي «أهلًا» في حضرة هذا البركان الذي يستعد لقتلي؟ كيف أحمي جسدي، غضاريفه، اعصابه، مساماته، من هذا (الجن) الذي خرج من باطن الارض وجاء يغزوني ويحاربني بعد صمت لا ادري كم طال وكم تسمم؟

كنت أسمع آلاف القصص المعجونة بالسحر، ان يقال — فيها — عن امرأة واحدة مالا يقال في معجزة، أما أن اكون أنا نفسي من يرى هذا النوع من النساء، فهي حكاية اخرى ليس من السهل على «عامر حسون» الذي اعرفه واحمل هويته ان يفعل في بطولتها غير ما يفعله المنكسرون من الناس...

* * *

في الطريق، ما بين البصرة وبغداد، وقف القطار بي..

كنت اعرف نوع مصيري منذ رأيتها اول مرة، أين يذهب ذاك التراث الرهيب من الحرمان، اذا لم تكن (سامرة) اجمل ضحايا هذا العيب السام الذي تسرب في جسد جدي وأبي؟..

ما ذنب هذا الجسد الضعيف — جسدي — وقد تغلغل فيه من سموم الماضي ما تعجز عشيرة من الثيران عن حمله والسير فيه طوال هذا العمر الخسران؟ اية امرأة — مهما كانت عنيفة وداعرة وقوية — يمكنها ان تصبر على تلك اللذة المريضة التي تنبع من رياح دمي ومن جبروت لحمي الذي لم يعرف من شبق الماضي سوى السكوت والصبر والعادات الليلية التي ينام بعدها مثل كلب ميت!

أعرف انني — ما بين البصرة وبغداد — ضيعت الطريق الذي كنت اعرفه، وصار على رجل — مثلي — ان يمشي بقية المسافة دون آمال ودون رسوم لهذا الشيء الغامض الذي يسمّونه المستقبل.. كيف يمكن أن اكون وحدي بعد ان تعلّم كل غضروف في جسدي وكل شهيق في قصباتي وكل ورم تحت جلدي على هذه المرأة التي لا تشبه أية واحدة من نساء الكرة الارضية!

* * *

في الساعة الثانية بعد الظهر، رأيتها ترفع حقيبتها الصغيرة، وتسأل مارلين بصوت خافت:

— أين تسكنين؟

قالت مارلين وهي تبتسم لها بشيء من الحب:

— أسكن (رأس الحواش) وسيارة الوزارة تنتظر

الآن... هل انتِ على طريقي؟

قالت سامرة وهي ترفع حاجبيها قرب شعر رأسها بشيء من الحزن:

ـــ أنا أعيش في (البياع).. في أول شارع هناك.

عند باب الوزارة، رأيتها تسأل عن رقم السيارة التي تمضي الى البياع... ولست ادري كيف مشيت اليها، وقلت بصوت مغلق:

ـــ تعالي معي، أنا أسكن في البياع.. وطريقنا واحد.

راحت تحدّق في وجهي كمن تسخر من ضعفي وخجلي وانكساري، قالت لي، وهي تضحك من رئيس القسم الذي جاءت اليه:

ـــ أنت من أهل البياع؟ الحمد لله...

ولم أفهم ـــ ابدا ـــ ما تعنيه، ربما قالت (اي كلام) يربط صوتها بصوتي، لكنني ـــ عادة ـــ حذر من كل فكرة تطرأ على وجودي. خائف.. مرتبك.. حائر.. أعرف ان بقية العاملين معي لا يعرفون اي شيء عن اسرار نفسي وخبايا جسدي، وهل تراني احتاج الى (فضيحة) حتى يفهم الناس انني عكس ما يعتقدون.

هي التي جاءت وربطت جسدها قرب جسدي، كانت السيّارة تهتز فوق شوارع بغداد، وكانت كل مسامة في جلدي تهتز آلاف المرات، كنت أراقب اصابعها، تتحرك دونما سبب فوق فخذها.. اريد ان انطق بكلمة تجعلني اكثر قربا اليها.. لكنني مثل حمار مكتوب عليه البلادة بقيت صامتا حتى سمعتها تقول للسائق:

ـــ هذا مكاني، ارجو ان تتذكر هذا الدكان..لأنني سأنتظرك كل صباح في المكان نفسه!

شعرتُ انها ما زالت تسخر مني، لم تقل «مع السلامة» ولم تبتسم.. نزلت من السيارة كمن تقول لي «تحرك ايها الثقيل» ثم رحتُ انظر اليها حتى اختفت.. وبعدها بدأت اغرق في بحر من الذكريات: عن خذلاني وضعف لساني وانكساري.. تمنيتُ ـــ في لحظة باهرة مرّت مثل شعاع ـــ أن تعرف الدنيا كلها ان هذا الخذلان وهذا الضعف وهذا الانكسار لا يعني ـــ مطلقا ـــ انني بلا رجولة...

كيف يفهم الناس انني عكس هذه الصورة العاجزة التي يظنون؟ اية محنة أعيش، انا الذي اعرف حدود جنوني وشبق نفسي، وافهم حدود هذا الهوس الذي يخنقني ليل نهار؟

نظرتُ في المرآة ـــ وأنا أدخل بيتي ـــ وبصقت في وجهي، ثم رجعت انظر في المرآة، لم اصدق ان هذا الرجل الواقف ازاء كياني هو نفسه الرجل الذي احمله بين طيات جلدي.. تمنيت ان ابكي هذه الحقيقة التي يعجز لساني وتعجز كبريائي عن اعلان مزاجه الحقيقي وطبيعته وخصاله السرية الجائعة الرهيبة!

* * *

في أول ليلة، بعد ان رأيت «سامرة» اكتشفت انني لم أعش حياتي، غفرت ابتذال نفسي وتركت خلف ظهري استهلاك اعصابي بين اوراق الصادرة والواردة.. اي ارشيف رخيص هذا الذي انمو واذبل فيه، ما شأن رجل مثلي بادارة اعمال الموظفين في وزارة لا وزير لها؟ انني اختار الحليب لطفل لا يكبر، واكسر العصب الذي يجعلني فوق هذا النوع من البشر... لا حلم لي سوى ان يعرفني انسان واحد على حقيقتي!

ابتعد ايها الماضي.. ليس بين يديك سوى جثث معطوبة..

اقترب ايها القاتل العزيز.. انني مجرد رجل بلا رجولة!

هذا مقياس ما يرون، هو مقياس ما لا يرون والله يا سيدتي.

* * *

في الطريق ما بين البصرة وبغداد، وقف القطار بي..

أشهد ان لا طريق لي منذ خرجت من بطن امي، كنت اعرف الموت والهلاك والتشرد، اذا لم يتوفر الاول جاء الثاني واذا انقذني الله منهما وقعت في التشرد، حيث لا ملاذ سوى الخوف والدموع والصمت!

ما ان قطع القطار بي محطة «بغداد» وترك خلفه محطة «الحلة» ثم اقترب من «السماوة» حتى بدأت نيران الماضي تصعد في حديد القطار، تتسرب نحو حديد جلدي الذي راح يسيل مثل نهر كان قد تجمد في سنوات الماضي...

قلت لها:

ــ هل كانت عقوبتك في السابق لهذا السبب ايضا؟

ضحكت وهي تقرص خدي:

ــ ادخل ايها الساذج.. هذا الوقت لا شأن له بالوظيفة.

و.. دخلت، آلاف الخلايا تقتل آلاف الخلايا، يصعد تحت سقف القطار هذا الشيء القاتل اللذيذ، اسمعها وهي تعض يدي، احس بها وهي تنقل لحمها من تحت هياجي وتهمس بي:

ــ يا رئيس ادارتي، ايها السخيف، كم هو الفرق بين ما ارى الان وما رأيت منك في ارشيف الوزارة.. هل يمكن ان اصدق انك الانسان نفسه الذي يأتي معي، ثم يذهب في سيارة الدائرة مثل تمثال محنط..

نظرت في بؤبؤ عينيها، وبدأت أمزق ما بقي منها وأنا اصرخ: لا أحد يعرفني يا سامرة، لا احد يعرفني يا اعظم عاهرة في الدنيا!

* * *

في الصباح، خرجت من بيتي ونظرت الى الضباب الخفيف الذي يفصل ما بيني وبين بيتها.. كان البرد يطارد جلدي منذ ليلة البارحة، رغم انني لبست ما يزيد على خمسة كيلوغرامات من الثياب السميكة:

ــ هذه حياتي!

لا أدري ماذا دهاني؟ لم أعش حالة كهذه منذ طفولتي، انني انكسر في وجه البرد وأذبل تحت سقف من كوابيس غريبة وأضرب رأسي خجلا في وجه (سامرة) وانكسر انكسارين في وجه هذا العشق الذي فات مثل سيف قاطع صار يمزقني منذ اول دقيقة دخلت فيها سامرة الى غرفتي!

غريب حقا، هذا الهاجس الذي يدور في عقلي، كان الهدوء والضجر والرتابة تلف ايام عمري، هاجمني هذا الهاجس العجيب وقال لي:

ــ لم يكن ثمة معنى لحياتي.

المطر عظيم وجميل، أنا احبه وارتاح تحت هسيسه وبلله، نهر دجلة رائع، وأنا صديق له وقريب.. لكن الهاجس ابتلاني وقال لي:

ــ كيف تقنع ايها البليد؟ كيف تمر الدنيا هكذا بطيئة ومضحكة بلا امرأة مثل سامرة ودون مغامرة او حلم تعيشه مرة واحدة حتى اذا انتهت هذه المرة بالهلاك او الموت او الجنون!

اقتربت سيارة الوزارة، وما ان صعدت اليها حتى رأيت نفسي اختار مكاني في آخرها قرب اية قرانية تقول «هذا من فضل ربي».

جسدي كله مثل سعفة في مهب ريح بلا رياح، لا ادري كيف يرتعش هذا الجسد الكبير و«سامرة» لم تصل اليه بعد.. لكنها بعد اقل من دقيقة واحدة كانت تجلس لصق جلدي، ثيابها تضرب في ثيابي، انفاسها قتلت انفاسي.. لا اعرف من منا كان الرجل ومن منا كان المرأة.. لكننا ــ كنا ــ في طريق واحد الى الوزراة..

قالت بهدوء سحري:

ــ صباح الخير استاذ عامر..

نظرتُ اليها ــ نظرة رجل ممسوخ ــ وقلت لها:

ــ صباح الخير، اهلا وسهلا.

كم كان صوتي هشاً وسخيفاً ومضحكاً ومبتذلًا ورخيصاً، تمنيتُ ان أموت قبل ان أسمع نفسي وأنا أردد ــ بلا سبب ــ مثل ببغاء مريض:

ــ أهلا وسهلا.. اهلا وسهلا..

فجأة، كما في البراكين التي انتظرت آلاف السنين، وانفجرت.. كما في البحار التي هاجت وماجت آلاف السنين، ثم فاضت...

لا أدري، لا اصدق نفسي وانا امد يدي على فخذها واضغط عليه مثل مخبول لم يأكل منذ آلاف السنين!

لكنها ــ اية امرأة كانت ــ لم تصرخ، ولم تعترض ولم تتحرك.. بل قالت قرب أذني كلمة واحدة ما زال بريقها

وطعمها وحنيني اليها يقتلني حتى الآن..
قالت: عيب!
ولم اشعر بالعيب مطلقا، كنت في تلك الساعة اجمع اعصابي وشرايين عقلي استعد لكل ما يطرأ في العالم من سخط وقتل ومجازر.. لكنني وصلت الوزراة ورفعت اصابعي عن هذا الثراء الذي لا يشبه اي ثراء آخر تحت ثياب اية امرأة في الكون.
كنت آخر من نزل، لكنني عند باب السيارة سقطت ارضا ولم اشعر بنفسي ابدا..

* * *

في الطريق، ما بين البصرة وبغداد، وقف القطار بي..
دخلت في شروق الشمس — ايه يا سامرة — وارتاح جسدي في سخونة باذخة، تمرغ الرأس في سرداب مزحوم بالشيكولاته ورائحة البحر، صعدت بي هذه المرأة الملوثة بالغرابة الى غروب الشمس، الى النخيل الممتد شرقا، ودارت حول عمود الشمس الشاهق، سقطت سامرة فوق ضوء مساماتي تغرق في رائحة الحرمان والسرّ الذي أحرق نصف كرياتها الحمراء، والذي أتلف آلاف المسامات المكهربة بالجنون والشبق العتيق.
صار الليل صديقا وحارسا، يراقب هذا الجنون الذي ينتقل من شهيق الى شهيق، ويضحك من هسيس اللحوم، تدخل وتخرج، وهي تشهق باللوعة والجنون والفساد الجميل..
قالت سامرة، لم اسمعها وهي تقول:
— يا لك من رجل كذاب، كل شيء فيك كاذب وحقير..
ثم راحت تتسلق عمود الشمس وسعف النخيل، وارتاح هذا الجسد المحروق فوق ليل لا يعرف الصباح.. مثل عذراء خائفة، هكذا كانت ملامحها: عذراء لا تعرف اسرار الليل، لكنها فضحت كل اسراري مرة واحدة..
قالت: يكفي.. قلت لها: ماذا سأفعل بعدك يا سامرة؟
ثم تناثرت بيوض الشيطان فوق الوجه والنهدين والرقبة، كنتُ اسمعها تئن وتبكي، وكنت مثلها ازداد انينا وبكاء وخوفا.
مددت اصابعي في سرداب معتم، لست ادري لماذا وقف القطار بي، وكيف رأيت نفسي وحدي دون شهيق يسامرني وينقذني من الذعر الذي صار يمد لسانه ويلحس بي!

* * *

عندما وقعت عند الباب الكبير، رأيت نفسي بعد يوم واحد «حكاية» كل نساء الشعبة وبنات الوزارة. اينما وليت وجهي يعثر بي من يسألني عما جرى؟
هل كنت ادري بما جرى؟ لقد اهلكني جوع غضاريفي وصار يقتلني هذا الشبق المدفون في لحمي منذ ايام جدي وابي..
اقتربت من مرآة عتيقة ممسوحة، معلقة على جدار محروق قرب سنترال الوزارة، كنت اريد ان اهرب من وجهي، لكنني وقفت، نظرت الى شعر رأسي وجبيني العريض وانفي المكسور واسناني التي لم تزل بيضاء رغم السكائر السيئة التي اشهق بدخانها ليل نهار... مددت يدي حول هذه الرقبة السمراء، وشعرت انني جاهز للشنق، لا احد لي، مقطوع من اشجار الدنيا كلها.. ليس من «بشري» يعرفني سوى هؤلاء البسطاء الذين يموتون معي في ارشيف وادارة الوزارة..
ماذا يعني هذا كله؟
كيف اخاف من نفسي، وعلى من اخاف؟
هذه — قرب يدي — امرأة من عصور غابرة لا تشبه النساء.. هل ثمة ما يجعلني اخاف منها؟ قطعت نصف عمري بلا جسد ينقذني من همومي، بلا رفيق يساعدني.. هل اقتل نفسي بنفسي وما زال في الدنيا امرأة مثل سامرة؟
رأيتها — وأنا افكر في اطلال هذا الرجل المسكين الذي يمشي تحت اسمي وهويتي — تقترب مني وتقول بصوت تعبان:
— ارجو ان تكون بخير يا سيد عامر.. صدقني —

والله — كنت اريد ان امد يدي اليك واحملك على ظهري الى اقرب طبيب، لكن الناس لا ترحم..

رفعتُ وجهي، نظرت الى مارلين وفاضل، ثم امهلت نفسي نصف دقيقة حتى رجعت احدق في عينيها واقول:

— اشكرك جدا.. لا اعرف ماذا دهاني، أنتِ الخير والبركة يا ست سامرة.

ثم شربنا الشاي، أي طعم غريب لهذا الشاي العراقي في وقت المحنة اوفي وقت البهجة؟ طفل يأتي من وراء العقم البشري ويفرش فوق رأسي آلاف الزهور.. اريد ان اصرخ داخل هذه الغرفة.. من يفهم هذا الصراخ الذي ينبع من ثغرات جلدي ويدور تحت مساماتي، يذبحني، يمزق ما بقي مني ويوقفني بيد من فولاذ ويضحك مني!

سمعت مارلين وهي تضرب الحروف على امتداد رولة الطابعة وتقول بشيء من التردد:

— بصراحة، انا احترم السيد عامر.. لا ادري كيف تصبح ايام الوظيفة اذا تبدل؟ هو الرجل الوحيد الذي لا يحاسبنا اذا تأخرنا ولا يمانع في منحنا اجازة، بل يسأل عنا في السراء وفي الضراء..

بعدها قال فاضل وهو يهزّ رأسه:

— اي والله. هذا كلام موزون.

نظرت الى الوجه الصامت الذي لم يقل اي شيء منذ دخل علينا وتمنيتُ ان يسمع ما يقوله عني بقية الموظفين!

اقتربت (سامرة) من التلفون، ثم رفعته وأدارت سبعة ارقام، ثم سمعتها تقول:

— صباح الخير، انا سامرة، ربما أتأخر ساعة او ساعتين، ارجو ان تعرف امي.. اخبروها انني سأشتري الثوب الذي طلبته مني..

ثم هاج في رأسي عفريت منسوج من نار، وماج بحر ظنوني، دارت بي الدنيا ذات الشمال وذات الجحيم، ما شأني بما تفعله سامرة؟ انها مجرد موظفة لا حق لي عليها سوى حقوق الوظيفة..

ماذا حل بعقلي؟

أكاد اسقط مثل مخبول سكران، لا أملك الصبر على هذه الشكوك وقد طوّقني حبلها من شعري وغضاريفي وأصابعي دفعة واحدة..

* * *

في الطريق، ما بين البصرة وبغداد، وقف القطار بي..

مددت لساني وضحكت مثل ممثل رخيص، قلت لها: افعلي بي ما تريدين، أنام اليوم تحت رحمتك، اختاري الدرب الذي يعجبك الى جسدي.

انحدرت امطار الربيع وزوابع الشتاء على صحرائي، تشابك غصن الحرمان بغصن اجدادي، لهاث وشخير ولعنة تشهق بالكفر والخراب اللذيذ، قالت: اهدأ.. لكنها رفعت جذعها فوق نخلة لا سعف لها، وانحشرت بها، قلت لها:

— بهدوء ايتها الشريفة..

لكنها نزلت وراحت صوب سماء صفراء وعشب اسود، دخلت، ثم هاج فيها مطر الصيف الذي ينزل مرة واحدة في العمر كله، رأيت امطار الخريف تصب في عشرات الثغور، تصب وتلتهب، يتبخر من قاع الدوح ما يشبه الصراخ، رذاذ فوق اصابع اليدين، وجبال تشهق تحت لسانها، اختفي بين عروقها، في عتمة لا اعرف مداها، ولا ادري من اين يبدأ سرها، صراخ وشهيق وذعر داعر، زفير يحرق لحم وجهي..

قلت لها: يكفي..

لكنها سقطت في بحر لم يكن قرب يدي، فجأة، جرجرني البكاء على سنوات العمر الغابرة، التي مرت بلا مطر وبلا نساء..

قلت في ذات نفسي: هل تراني بدأت حياتي؟

* * *

في الساعة الثانية ظهرا.. رحت امشي خلفها، من زقاق الى زقاق، ينقطع تحت حذائي شارع ويبدأ شارع آخر.. وهي ما زالت تمشي، لم تتعب ابدا..

نظرت الى عقارب الساعة، كانت الثالثة، معقول هذا الذي ارى؟ ستون دقيقة مرت، لا ادري اين اصبحنا؟

لكنني بدأت اخاف ان تراني.. كنت اريد الرجوع لئلا اخسرها، من يدري ــ وانا امشي خلفها ــ ماذا ستقول لي؟ حدقت فيها ــ عن بعد ــ افكر في اللغز الذي تعيشه (سامرة) لكنني ما ان وقفت، حتى رأيتها تعرج على زقاق آخر.. ورغم ارادتي مشيت بسرعة حتى ارى المكان الذي تمضي اليه..

ماذا فعلت بنفسي؟

ما إن مددت عنقي الى الزقاق ابحث عن سامرة، حتى هبط الموت فوق رأسي وأنا اراها لصق جسدي، تسألني عن رأس الزقاق:

ــ ماذا تريد مني يا عامر؟

كنت اريد ان اهرب، او ترحمني هذه الارض وتبلعني، او يسقط نيزك من السماء يمنعها من الغوص الى احشائي.. كنت ارجو الله والسماء والبشر ان ينقلب العالم على رأسه حتى اختفي من بين عينيها.. لكنها مازالت تمزقني بصوتها الغاضب العنيف:

ــ ماذا دهاك؟ منذ خرجنا من باب الوزارة وانت تمشي ورائي.. ماذا تريد ان تعرف؟

ليس اطول من تمثال، هذا الذي تنظر اليه وتهزأ منه، ماذا دهاني حقا؟ اريد ان اختفي من هذا الزقاق، من المحلة كلها، من شوارع الدنيا بأسرها، احلم ان انطق ــ حتى ــ بكلمة واحدة..

أيّ ضعف يعتريني إزاء هذه الأنثى الغريبة؟ أيّ ضعف كنت أعيش طوال طفولتي وصباي.. وكيف انتقل معي هذا الورم العجيب حتى رجولتي؟!

كل هذا مفهوم بالنسبة لي: أن تصرخ في وجهي أو تهزأ من حركاتي، كل شيء ــ على امتداد خارطة البشر ــ مفهوم جداً، سوى ما رأيت......

وماذا تراني رأيت؟

لا أكاد اصدق هذا النوع من النساء، انهن يظهرن في القصص والذكريات المنسوجة من خيوط الخيال.. أما أن تظهر إحداهن في حياتي ــ أنا ــ فهذا ما كان فوق خيالي وأبعد ما يكون عن بصري وذهني..

ماذا تراني رأيت؟ وماذا تراني سمعت؟

إنها تبتسم في وجهي، اي والله، هذه أقرب معجزة أمسكها بيدي، ماذا أفعل وأنا أسمعها تقول:

ــ حسناً، تعال معي.. تعال.. كنت أعرف منذ البداية أي نوع من الرجال أنت.. لا تستغرب، كنت اريدك أن تفعل ما فعلت، انني بحاجة الى إثارة الشك فيك...

أيّ حمار هذا الذي لا ينهق ولا يعترض ولا يسأل عن بقية المشوار؟ ماذا جرى في أعصابي ومسامات جلدي وشرايين رأسي حتى أسكت هذا الوقت الطويل؟ لم أكن على هذه الصورة الذليلة مهما كان شكل مصائبي وحماقاتي!

لم اكن هكذا أبداً..

مشينا مسافة ليست أطول من عشرة أمتار حين رأيتها تلتفت الى بيت من البيوت وتقول لي:

ــ كنت أعيش في هذا البيت، اكثر من نصف عمري فات بين هذه الجدران العتيقة المهدمة.. لكنها ــ والله ــ كانت أجمل أيام العمر..

فجأة، رأيت نفسي أقول مثل مخبول يبحث عن عقل تائه:

ــ أنا احبك يا سامرة..

* * *

في الطريق، ما بين البصرة وبغداد، وقف القطار بي..

تسربت الى أنفي رائحة الزعتر والغابات، قالت بصوت داعر لذيذ عذب قاتل: تعال أيها الدب القذر..

رميت ثيابي، كنت اريد العوم في بحر لا يعرف الهدوء، أمواج تضرب رأسي، وهذه الغرفة الضيقة تسكر مثلي، رائحة البخور والنعناع والبيرة تأتي من حدود (السماوة) تدخل أحشاء هذا القطار السافل الذي لم يتحرك منذ ربع ساعة أو ربع سنة..

أعوي فوق أعشاب بلا جذور، أغرز أظافري في لحم أبيض، وأقول: يكفي، لا اريد ان تموتي تحت فخذي.. لا بد من عاقل واحد يا سامرة.. أي دم خبيث هذا الذي صنعوك منه «تعال أيها الكلب المريض»..

تعال أيها الجلاد الرقيق..
ليس من مطر في الصيف، أنتَ من علّمني كيف أغرق في أمطاري..
احترق جلدي مثل عشب يابس، تحت شمس آسرة، وجه امرأة يشبه موجة وقحة يمر حولي.. كيف بدأنا وأين يختفي هذا الشبق الموجع مثل النار؟ مجرد كلب جاهز، يلعق العظام التي أفسدها الزمان.. انني أدخل باب المجزرة وأغلقه خلفي!
هل مسّني سحر الحرمان، أم مسّني الذعر من سحرها، وأنا أنتقل من جبل الى جبل، ومن كهف الى كهف، ومن هسيس الى هسيس؟ كانت تضحك لي وحدي، شعرها أطول من ليل شتائي غامض.. وجه طفلة وجسد امرأة، رائحة الغابات والزعتر تأتي ثانية فوق ضباب خفيف..
انني فوق سماء وغيوم ونيازك، مثل طائر لا يصدق انه عاش نصف حياته بلا أجنحة! شلال من عسل، وأنا جسد لم يعش غير الجفاف.
أيّ جسد بدائي أحمل تحت رأسي؟
ماذا حلّ بعقلي وخبايا نفسي التي «ماتت» وراء الوظيفة؟ قلت لها: خذي هذا العنيد النافر المدلل وانقذيني من جوع الماضي.. نظرتُ من وراء نافذة القطار الى سماء سوداء غطت جسد القطار وجسد الارض ومدّت ظلمتها حتى غطت على جسدي.. وبدأت من جديد!

* * *

ضحكت مني ونحن عند ذيل الزقاق:
ــ هذه أول مرة أسمع فيها من يقول «أحبك» كل من رآني كان يريد النوم معي.. وبس!
كنت غبياً ــ أعرف هذا ــ عندما قلت لها:
ــ هل حدث هذا مع أحد منهم فعلًا؟
ولم أسمع صوتها بعد هذا السؤال، أدركت بأنني ما زلت ذاك المريض الذي لا يفهم كيف يأخذ الدواء لنفسه.. لكنها بعد قليل قالت بهدوء، ودون أي ارتباك وبلا خجل:
ــ هل تريد أن تنام معي؟
ومثل مسمار، أو مثل حمار، وقفت، وأنا أبلع نصف هواء العالم وأقول:
ــ ما هذا الكلام يا سامرة؟ أنا أحبكِ.. يشهد الله انني أحبكِ فعلًا..
لكنها رغم كل ترثرتي وغبائي قالت بصوت قوي:
ــ اذا كان عندك المكان المناسب، اخبرني.. واذا لم تستطع تدبير المكان نسافر الى البصرة في قطار المساء..
جرجرني إبليس من ثيابي ــ أيها الطفل الذي لا يكبر، هذا زمن غير زمانك ــ الارض تهتز تحتي، وأنا عند ذيل الزقاق، متروك وحدي، مثل قطة تنتظر من يشفق عليها..
ماذا سيفعل غيري من الرجال مع هذا النوع من النساء؟
ــ اذا كان عندك المكان المناسب!
انني والله يا سيدتي، اناسب المكان الذي عندي، لكنه لا يناسبك أنتِ، المحلة فقيرة ومغلقة، وأي وجه غير مألوف يصنع العجائب عند الجيران..
ــ نسافر الى البصرة في قطار المساء..
الليل في القطار؟ هذه فكرة لا يعرفها أحد من الناس.. هل تراهم عاقبوكِ على غيابكِ دون عذر مشروع بسبب رحلة كهذه؟..
جرجرني الشيطان من بنطلوني وهمس بصوت عذب:
ــ تحرك أيها الموظف الميت، هل أنت سعيد بهذا البنطلون الثابت فوق لحمك؟ تحرك..
اخبرني، اذا كان عندك المكان المناسب، اخبرني، أو نسافر... في قطار المساء، الى البصرة، أيها الموظف الميت الحقير، تحرك، تحرك...
وذهبنا الى البصرة في قطار المساء...
تحرك القطار، ولم أتحرك!

* * *

في الطريق ما بين البصرة وبغداد، لم يقف القطار بي.. أنا الذي احتار جلدي معي، أنا الذي اعطيت المحطة بطاقة

الذهاب دون عودة.. كنت اريد قتل نفسي وقتل وظيفتي..

هذا الجسد الذي معي، بات مفتوح الساقين بلا نبض وبلا حياة.. هل يفهم القضاة ما فعل بي جدي وأبي؟ في حقيبة سامرة لم أعثر على سامرة، لم يكن في حقيبتها الصغيرة غير خاتم فضيّ مركون في زاوية مهملة، وآية من القرآن تقول «الله لا إله الا هو الحيّ القيوم..» ومناديل بيضاء من ورق، وفي الشق الثاني منها رأيت ما يزيد على ألف دينار.. دون وعي مني رحت افكر انها تكفي ما يزيد على اسبوعين في شيراتون البصرة حتى تعرف الشرطة ما جرى، وتفهم ان الذي كان مع «الجثة» مجرد رجل اسمه عامر حسون..

اخذت من هواء بغداد ما يكفي بغداد كلها.. أول امرأة اغادرها كانت اول انثى غدرت بي.. نسيت بعض همومي في شيراتون، الطعام اللذيذ يصعد الى غرفتي، والبيرة تزداد على ارض الغرفة مثل قطار لا نهاية له..

لكن الخوف كان يزداد ايضا في مسامات الغرفة، اغسل جلدي في حمام أنيق، يحرقني الماء الساخن، وحدي، امد يدي تحت مخدتي، ما زالت الدنانير تحتها وما زال الرعب يمد لسانه من تحت هذا السقف العريض! فجأة،

قررت ان اقتل نفسي، وانقذها من هذه الكوابيس التي صارت تتسرب في طعامي وافكاري.. لا اريد ان اصدق ما جرى، بات الموت اسهل من ليل لا انام فيه ومن نهار لا اعرف من سيأتي فيه..

اقتربت من المرآة، نظرت الى نفسي، رفعت يدي.. و.. قتلت نفسي، لكن حواف المرآة لم تكن تكفي..

قلت لهم:

— ماذا اريد غير الهدوء، ليس من سبب وراء ما فعلت، انا رجل وحيد لا فروع لي..

رأيت نفسي داخل غرفتي — ثانية — في شيراتون.. قررت ان اقتل نفسي بهدوء.. لكنني نسيت ارادتي فوق ملفات الشرطة..

في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، رأيتها تدخل الى غرفتي في شيراتون، تضحك لي وتقول:

— جاء الآن دوري يا عامر حسون.. ماذا فعلت بي ايها المجنون؟ اين اخفيت هذا السعار ايها الكلب المزيف؟

رأيتها تغلق الباب بعد ان تركت عند الوجه الاول منها عبارة تقول «ممنوع الازعاج لطفا».. ثم اقتربت، كانت تخلع ثيابها ببطء لذيذ.. رميت نفسي على الفراش الساحر وانا اراها تقترب.. ثم تقترب.. ثم تقترب..

كان المطر الشتائي يضرب النافذة بقوة، كانت سامرة تضربني بقوة، كانت البيرة الباردة تسلبني هدوئي وعقلي.. رميت نفسي على فراش وثير واعطيتها الحق في قتلي!

في الصباح، كانت الشرطة تسأل عن هويتي، لكنني كنت اسعد اموات العالم، انا الذي اختار موته، اشهد انني اسعد اموات الدنيا، فقد كان القطار الذي وقف بي ما بين البصرة وبغداد قد تحرك بسرعة وهو ينقل اكثر من جثة واحدة لا يدري احد من الناس كيف ماتت. وفي شيراتون الليل لم يعرف أحد من الناس هوية من مات في الجناح العريض الساحر، لكن شعبة ارشيف وادارة الوزارة ما زالت — حتى الان — تبحث عن بديل بعد ان رفعت عقوبة ثانية بحق السيدة «سامرة» على غيابها ثلاثة ايام دون عذر مشروع!

* * *

في الطريق، ما بين البصرة وبغداد، وقف القطار بي..

صحوت من موتي، ابحث عن امرأة اسمها «سامرة» ابحث عن حقيقتي، لكنني لم اعثر على اي جزء منهما.. كانت الساعة قد اعلنت الثانية ظهرا حين خرجت من باب الوزارة ابحث عن (شيء) عشت فيه، ثم ضاع من ذاكرتي، الا انني لم اعثر على اي جزء (مني).. وفجأة، اكتشفت انني (موظف) في هذه البناية منذ ما يزيد على ثلاثين سنة.. وانني رغم السنين الطوال لم اغادر بغداد مرة واحدة.

بغداد